مصر والمصريون والأجانب

obeikandl.com

obeikandl.com

مصر والمصريون والأجانب

قيل عن الملك فؤاد إنه كان شديد الميل إلى الاستعانة بالأجانب

والواقع أن مظاهر بعض الأمور كان يشجع على رواج هذا الرأي بين الذين كانوا يجهلون بواطن تلك الأمور ولا يعرفون حقيقة رأي جلالته في الموضوع

فقد كان الملك فؤاد يميل فعلا إلى الاستعانة بالأجانب ولكن لا يستطيع أحد أن يقول إنه كان يميل إلى الاستعانة بهم على حساب المصريين

كان يرى أن تستعين بهم مصر في كل فرع أو فن أو عمل لم يتهيأ له بعد المصريون الذين يستطيعون أن يحلوا محلهم فيه

ولم يكن يرى في ذلك غضاضة على مصر أو افتئاتاً على سيادتها أو مساساً بكرامتها بل كان يرى أن مصلحتها هي التي يجب أن تؤثر على كل اعتبار آخر فاذا قضت مصلحتها بالاستعانة بالأجنبي وجب الاستعانة به صوناً لهذه المصلحة وخدمة لها

وكان يرى أكثر من ذلك في تقديره الصحيح لمعنى المصلحة المصرية الحقيقية أن لا يظهر المصري الذي يحل محل الأجنبي إلا عند ما يصبح قادراً حقيقة على الحلول محل الأجنبي فيرفع رأس مصر . أما « أنصاف الأكفاء » فلم يكن ميالاً إلى إظهارهم لأن المهم — كما كان يقول — ليس أن يحل المصري محل الأجنبي بل المهم هو أن يحل محل الأجنبي مصري يعتز به المصريون ولا يخجلون

opelkandl.com

فمن ذلك أنهم لما عرضوا عليه في وقت ما بيان الكراسي الشاغرة في مجلس إدارة الجمعية الجغرافية الملكية وضعوا إلى جنبها أسماء بعض المصريين والأجانب المرشحين لشغلها لكي يبدي رأيه فيها فقال جلالته للذين كانوا في حضرته في تلك المناسبة : « كنت أود أن لا أرشح سوى مصريين لهذه الكراسي كلها . . . ولكن أين هم المصريون الذين يستطيعون الآن أن يجلسوا في مجلس إدارة جمعية كهذه . . . ها كم فلاناً مثلا . . . إنه رجل شريف ومتعلم وقد يكون من علماء القانون ولكن ما هي صلته بالجغرافيا فكيف يمكنني أن أرشحه وأنا مرتاح الضمير إلى أنني خدمت وجه مصر في هذه الجمعية . . . وفلان ما هي أعماله الجغرافية أو بحوثه الجغرافية . . . وفلان كيف أرشحه وليس له بحث واحد في موضوعات الجمعية الجغرافية . . أيريدون أن أرشح مصرياً والسلام فاذا جلس مع إخوانه الأجانب تجلى عجزه . . . أأكون بذلك قد خدمت مصر ؟ ! . . . »

وانتهى الأمر بأن لم يختر من المصريين سوى معالي أحمد محمد حسنين باشا تقديراً لأعماله الجغرافية في رحلاته الصحراوية وسعادة زكي الابراشي باشا بوصفه ناظراً للخاصة الملكية فيشترك في الإشراف على الادارة المالية لما كان جلالته يمنحه للجمعية من هبات مالية كبيرة باستمرار

ولكن في الوقت نفسه كان جلالته يبذل أقصى ما يمكنه ليكثر عدد المصريين الذين يستطيعون أن يحلوا محل الموظفين الأجانب . كان يحث على ذلك في كل مناسبة وله في هذا الشأن مواقف كثيرة ظلت لسوء الحظ مجهولة من الناس

قال لي سعادة محمود شاكر باشا إنه لما عين في سنة ١٩٢٣ وكيلا لمصلحة المساحة كان أول مصري يقلد هذا المنصب فلما تشرف بمقابلة الملك فؤاد قال له جلالته : « أنت ذاهب إلى مصلحة كبيرة ليس فيها مهندس مصري واحد فاعمل فوراً لتلافي هذه الحالة » فلم تمض على سعادته فترة قصيرة في مصلحة المساحة حتى نقل

إليها مهندسين مصريين كثيرين من وزارة الأشغال وأرسل آخرين إلى أوربا في بعثات فلما عادوا إلى مصر حلوا محل الأجانب

وقال الملك فؤاد لشاكر باشا مرة أخرى إن من أعز أمانيه أن يرى طوابع البريد المصرية تطبع في مطبعة المساحة المصرية لا في أوربا فلما أخبره سعادته بعد ذلك أن مصلحة المساحة أصبحت مستعدة لطبع الطوابع وأنها ستباشر طبعها طلب جلالته أن يطلع على « بروفات » الطوابع الأولى قبل الشروع في الطبع فلما عرضت عليه لم تعجبه وأشار بادخال تعديلات عليها فلما رفعوا إليه البروفات للمرة الثانية لم ترق له كذلك وأشار بتعديلات أخرى وظل جلالته يطلب « بروفات » جديدة إلى أن جاءته بالشكل الذي كان يريده فأذن عندئذ في الشروع في الطبع وقال لشاكر باشا: «أنا أتعبتكم ولكني أظن أنكم حريصون مثلي على أن لا يقال ان الطوابع التي طبعت في مصر ليست في مستوى الطوابع التي كانت تطبع في أوربا . يجب علينا إذا باشرنا شيئاً كان الأجنبي يباشره بالنيابة عنا أن نقيم الدليل على أننا لا نقل عنه إجادة »

وقبل أن ينصرف شاكر باشا من الحضرة العلية قال له جلالته « والآن أريد منك أن تفكر في اليوم الذي نطبع فيه ورق البنكنوت المصري في مطابع مصرية »

✡ ✡ ✡

ولما عين شاكر باشا مديراً عاماً لمصلحة سكة الحديد قال له جلالته : « اريد منك أن ترسل مهندسين مصريين إلى أوربا لكي يتعلموا عملياً ما يمكنهم بعد عودتهم إلى مصر من أن يحلوا محل المهندسين الأجانب الذين هم في مصلحة سكة الحديد »

وقال لي شاكر باشا : « وليس عندنا الآن في مصلحة سكة الحديد سوى مهندسين إنجليزيين اثنين . ومن المحقق أننا لم نبلغ هذه النتيجة إلا بارشاد الملك فؤاد وتوجيهه »

وقص علي سعادة حسن صادق باشا أنه لما عاد إلى مصر في سنة ١٩١٥ من البعثة التي كانت الجامعة القديمة قد أرسلتها إلى انجلترا كان الأمير « أحمد فؤاد » قد ترك الجامعة ولكنه رأى من الواجب عليه أن يزوره بمناسبة عودته فلما تشرف بمقابلته سأله سموه عما ينوي عمله فقال إنه يفكر في دخول الحكومة ، فقال له الأمير « دعك من الحكومة » فقال « وإلى أين أذهب » فقال سموه « اذهب إلى الصحراء فان جميع الذين ذهبوا إليها حتى الآن أجانب فاذهب إليها أنت الآن فان مؤهلاتك العلمية تؤهلك لذلك وبعد ما تمكث فيها ثلاثة أشهر أو أربعة إرجع وقابلني »

ولكن لظروف خاصة لم يتيسر لحسن باشا أن يعمل بهذا الرأي ودخل خدمة الحكومة

* * *

وفي إحدى السنين عرض بعض المعاهد الأميركية على سيادة مطران دير طور سينا (وهو الدير المشهور بدير سانت كاترين) مبلغاً كبيراً من المال في مقابل منحها حق البحث في الكتب والمخطوطات القديمة التي تضمها مكتبة الدير ولكن بشرط أن تستأثر وحدها بهذا الحق خمس سنوات متعاقبة فرفض المطران العرض

وأبلغ بعضهم الخبر إلى الملك فؤاد مبتوراً فدعا مطران الدير إلى مقابلته وسأله عن وجه الحكمة في رفض العرض مع أن في قبوله خدمة للعلم فقال المطران إنه يسلم بأن في العمل الذي تريد تلك المؤسسات عمله خدمة للعلم وأنه يجب على كل متعلم أن يتضافر على نشر العلم وعلى توسيع دائرته « ولكن هل نمي إلى مولانا الملك أنهم يشترطون أن يستأثروا بحق الاطلاع والبحث فلا يجوز حتى لمصري أن يلقي نظرة على مكتبة الدير ؟ » فقال جلالته « لم أكن أدري ذلك فاذا كان

الأمر كما تقول فقد أحسنت برفض العرض الذي عرضوه فاثبت على رأيك وأرفض طلباتهم حتى النهاية »

☆☆☆

ومما سمعناه من جناب المسيو جاكيه المستشار الملكي أنه لما عين في خدمة الحكومة المصرية وقدم مصر تشرف بمقابلة الملك فؤاد فقال له جلالته « إذا أحببت مصر فإن حبك لها سيتجلى للعيان فتبادلك حباً بحب ... إنني أعرف كل أجنبي يحب مصر وأعرف كل أجنبي لا يحب مصر أو لم يحبها ... وما دمت رجل قانون فسأحدثك عن القضاة الأجانب الذين أحبوا مصر والذين لم يحبوها ففلان أحبها وفلان أخلص لها وفلان خدمها خدمة صادقة . أما فلان فلم يحبها وكذلك فلان وفلان »

قال المسيو جاكيه « وبعد ما أقمت في مصر مدة كافية تبين لي أن المعلومات التي بنى عليها الملك فؤاد حكمه صحيحة مئة في المئة وأنه لم يخطىء قط في تقدير حقيقة العواطف التي تخالج كل واحد من الذين ذكر أسماءهم »

وفي مقابلة أخرى دار الحديث على بعض شركات الامتياز والاحتكار في مصر فقال جلالته للمسيو جاكيه « إني أعلم مدى اخلاصك لبلادنا ولكني مع ذلك ألح عليك في أن تنتهز فرصة المفاوضات التي تدور مع بعض تلك الشركات لتدافع عن مصالح مصر بأقصى ما يمكنك أن تدافع به عنها »

وهنا قال المسيو جاكيه « لقد كان الملك فؤاد في طليعة الراغبين في الاستفادة من التعاون المصري الغربي ولكنه كان إلى جنب ذلك مصرياً بكل جوارحه ومشاعره لا يهمه سوى اعتبار واحد وهو مصلحة مصر ومصلحة مصر وحدها »

☆☆☆

وحدثنا جناب المسيو فييت مدير دار الآثار العربية عن الظروف التي تم فيها

تعيينه في هذا المنصب فقال : « دعيت يوماً إلى وزارة الخارجية الفرنسية فأبلغوني أن الحكومة المصرية تريد تعييني مديراً لدار الآثار العربية وسألوني هل أقبل المنصب فقبلته عن طيب خاطر وأنا أعتقد أنه لابد أن تكون حكومة مصر قد طلبت من حكومتي أن ترشح لها رجلا ليكون مديراً لهذه الدار فرشحتني فصادف الترشيح قبولاً عندها

« غير أني لما وصلت إلى مصر وتشرفت بمقابلة الملك فؤاد قال لي جلالته إنه لما خلا منصب مدير دار الآثار تذكرني وتذكر المحاضرات التي ألقيتها في الجامعة المصرية الأهلية لما كان جلالته رئيساً لها فقال لهم إنني الرجل الذي أصلح لهذا المنصب فشكرت جلالته على هذه الثقة العظيمة وقلت إنني أرجو أن أوفق إلى خدمة مصر بما يرضيه ويحقق حسن ظنه بي »

والآن لنسمع ماذا حدث بعد ذلك . قال المسيو فييت مستأنفاً حديثه :

« وما كدت أتسلم مهام منصبي الجديد حتى عكفت على تنظيم دار الآثار طبقاً للخطة التي وضعتها لذلك وأخذت أضع دليلا بمحتوياتها فانقضت سنة ونصف سنة من دون أن يظهر لي عمل ما وفي ذات يوم أخبرني أحد مواطني أنه كان متشرفاً بمقابلة الملك فؤاد فأبدى جلالته عدم رضائه عني وقال إنه بدأ يأسف على ترشيحي لهذا المنصب فالتمست بعد أيام مقابلة جلالته ولما مثلت بين يديه بسطت له العمل الذي عملته في تنظيم الدار وأطلعته على جزء من الدليل الذي وضعته بمحتوياتها فقال لي « ولكني مع ذلك أتهمك بالكسل »

قال لنا المسيو فييت « فبعثني هذه العبارة على مضاعفة العمل والإنتاج فلما رفعت إلى جلالته بعد ذلك أول مؤلف ألفته في مصر عاهدته على أن أقدم له مؤلفاً جديداً كل سنة وقد بررت بوعدي فقال لي جلالته مرة باسماً « لو لم أقل لك في بداية الأمر إنك كسول لما فزت منك بهذه المؤلفات »

وانتقل المسيو فييت بعد ذلك إلى الكلام عن فضل الملك فؤاد على دار الآثار العربية فقال :

« لم يعمل في هذه الدار عمل هام واحد إلا كان الملك فؤاد وراءه . وقد كنت أتشرف بمقابلته مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر فبعد ما كان جلالته يصغي إلى ما أعرضه على مسامعه كان يتناول ورقة من أحد أركان مكتبه ويشرع في سؤالي : « المسألة الفلانية ماذا تم فيها . . . والعمل الفلاني إلى أين وصلتم فيه . . . ولماذا لم يخرج بعد الجزء الثاني من كتاب كذا . . . وماذا تنتظرون لإكمال كذا ؟ » فكنت في كل مرة أحسب أعظم حساب لمقابلة جلالته . ولما كان وقت الملك لا يسمح له بأن يقابلني كان معالي حسنين باشا يتصل بي ويبلغني أن الملك يستفسر عن كيت وكيت فأشعر على الدوام أن عين جلالته لا تغفل شيئاً وأن ذاكرته لا تنسى شيئاً وأظن أن المثابرة كانت من أعظم سجاياه فقد كان إذا آمن بفائدة مشروع ما وشرع فيه مضى فيه إلى النهاية ولو تعددت العقبات أو طال أمد الانتظار »

٭ ٭ ٭

وتحدث المسيو فييت عن حرص الملك فؤاد على آثار مصر فقال : « وقعت مرة في يدي صورة مصباح كان موجوداً في دير قبطي ولم ألبث أن أدركت أنه أثر نفيس جداً وأن له قيمته الفنية والتاريخية فخشيت أن يراه سائح من الأثرياء فيشتريه بأي مبلغ يطلب منه ويخرجه من مصر فتحرم منه مع أنه من الآثار التي لا يليق بها سوى المتاحف فرفعت صورته مع تقرير عنه إلى الملك فؤاد فتلقيت من جلالته بعد ثمان وأربعين ساعة أمراً بأن أذهب إلى ذلك الدير مع مدير مصلحة الحدود وأفاوض المسؤولين عنه في شراء ذلك المصباح أو القنديل وفعلا ذهبنا إلى الدير ومكثنا فيه ثلاثة أيام شاهدنا في خلالها كل محتوياته ولكننا لم نر

القنديل فعدنا إلى مصر وأبلغت جلالته نتيجة مهمتي مع إعرابي عن أسفي الشديد على اختفاء المصباح

« و بعد أيام اتصل بي رئيس الوزارة بالتليفون — وكان دولة اسماعيل صدقي باشا — ودعاني إلى مقابلته فذهبت إليه في دار الرئاسة فألفيت الوزراء مجتمعين عنده ولشد ما كانت دهشتي لما رأيت المصباح معروضاً على المائدة أمام حضراتهم فذهلت فقال لي صدقي باشا : لقد وفقت الحكومة إلى الحصول على المصباح الذي علقت عليه كل هذا الاهتمام فاحمله واذهب به إلى قصر عابدين واعرضه على جلالة الملك لأنه شديد الاهتمام بأن يراه قبل أن ينقل إلى دار الآثار . فلما تشرفت بمقابلة جلالته والمصباح بيدي ارتسمت على محياه أمارات الاغتباط والانشراح وقال : الحمد لله على أنه بقي في مصر ولمصر »

☆ ☆ ☆

وختم المسيو فييت حديثه بقوله : وقد ظل الملك فؤاد حتى آخر حياته يفكر في كل جديد ينفع به بلاده وقومه . قال لي جلالته يوماً إنه يريد أن يرى أطلساً جغرافياً يبين جميع مراحل التقدم في انتشار الإسلام في أنحاء المعمورة . فقلت لجلالته إن العالم الهولندي « كرامرسي » خير من يستطيع أن ينهض بهذا العمل ، فكلفني أن أطلب منه تقريراً عن ذلك فأعد « كرامرسي » تقريره ورفعته إلى جلالته ولكن وطأة المرض كانت قد اشتدت عليه فلم أر جلالته بعد ذلك

☆ ☆ ☆

وسمعت من مدام ديفونشاير الخبيرة الكبيرة في آثار القاهرة الإسلامية ما يصح أن يكون تكملة لما سمعته من المسيو فييت فقد قالت لي إن الملك فؤاداً كان شديد الغيرة على آثار بلاده منذ ما كان أميراً و إنه كثيراً ما حادثها بما ينم على اهتمامه العظيم بها فلما اعتلى العرش أمكنه أن يطبع هذا الاهتمام بطابع عملي وأن يسدي

إلى الآثار خدمات جليلة بنفوذه الشخصي . قالت مدام ديفونشاير : « وكان جلالته بعد ما أصبح ملكاً يتفضل بمقابلتي مرتين في السنة وفي كل مرة كان يطلب مني تقريراً بما عندي من اقتراحات عما أرى عمله لصون ما في القاهرة من آثار كثيرة

« ومما أذكره على سبيل المثال أنه في ذات يوم كنت أزور بيت السحيمي الأثري الشهير مع الليدي لورين قرينة السير برسي لورين وكان يتقلد إذ ذاك منصب المندوب السامي البريطاني في مصر فقيل لها إن مصلحة التنظيم تنوي هدم واجهة البيت لأجل توسيع الشارع فلما سمعت ذلك هاج غضبي وقلت لليدي لورين إن في تنفيذ هذه الفكرة خسارة على العلم والتاريخ لا تعوض وما كدت أرجع إلى بيتي حتى اتصلت تلفونياً بكل من استطعت الاتصال به من ذوي النفوذ راجية أن يتوسطوا ليمنعوا مصلحة التنظيم من تنفيذ مشروعها

« وفي اليوم التالي كانت الليدي لورين مدعوة إلى مأدبة رسمية في قصر عابدين فأفضت إلى الملك فؤاد بما سمعناه فاهتم بالموضوع وقال لها : اتصلي بمدام ديفونشاير وقولي لها أن تطلب مقابلتي غداً . وفي الغد تشرفت فعلاً بمقابلة جلالته وعرضت على مسامعه تفاصيل الخبر فأمر بأن لا تمتد يد التخريب إلى ذلك البيت الأثري الجميل الشهير

« وكان جلالته يعرف جميع جوامع القاهرة القديمة منذ ما كان أميراً فلما تبوأ العرش كان يختار كل أسبوع لصلاة الجمعة جامعاً منها فيجدد معرفته له وكان إذا تكلم عن تلك الجوامع وعن آثار القاهرة القديمة تكلم عنها كأعظم خبير بها

« ولم تكن إحاطته بالآثار الإسلامية مقتصرة على آثار مصر وحدها . فقد تشرفت بمقابلته مرة بعد عودتي من أوربا فسألني أين قضيت الصيف فقلت في إسبانيا فأخذ يتكلم عن الآثار الإسلامية الباقية فيها كأنه زارها من أشهر فسألت

جلالته متى زار إسبانيا فقال إنه زارها لما كان أميراً ليشهد مؤتمراً عقد فيها ولكن أعمال المؤتمر لم تسمح له إلا بمشاهدة جزء منها فلم ير آثارها الإسلامية كلها غير أن ما فاته رؤيته منها عوضه بالقراءة عنه

« ومن ذكرياتي عن حب الملك فؤاد لآثار بلاده أنني كنت أزوره يوماً وهو لا يزال أميراً فأطلعني على رسم نقش منقول عن أحد جوامع القاهرة القديمة فسألته عن الباعث له على رسمه فقال إنه أنشأ في الاسكندرية معهداً للصناعات النسوية (معهد الفنون الطرزية الآن) وإنه يبحث عن نماذج جميلة لتقلدها فتيات المعهد في أشغال الإبرة والتطريز فاستوقف نظره رسم نافذة في ذلك الجامع فأوصى بنقله ليرسله إلى المعهد »

٭ ٭ ٭

ولا يخفى أن الطيار محمد صدقي كان أول طيار مصري طار من أوربا إلى مصر ووصل إلى القاهرة بطائرته (في يناير ١٩٣٠) وكان جلالة الملك فؤاد يتتبع أخبار رحلته باهتمام وشغف عظيمين فلما علم أنه سيحلق فوق قصر القبة لتأدية فرض التحية أصدر أمره إلى رجال بوليس القصر بأن يكونوا متنبهين لما يمكن أن يلقيه الطيار من طائرته مخافة أن تبعده الريح عن موقع إلقائه وقد صدق حدس جلالته لأنه لما ألقى الطيار كتاب الشكر وطاقة الزهر حملتهما الريح بعيداً فوجدهما رجال بوليس القصر وأتوا بهما إلى جلالته

ولما سمع جلالته أزيز الطائرة خرج إلى شرفة القصر ومعه سمو الأمير فاروق وصفقا للطيار وهو محلق فوق القصر فقد شاء جلالته أن يشترك معه ولي عهده في تحية أول طيار مصري وأن يغرس في سموه من حداثته العناية بكل ما يرفع رأس مصر

وفي اليوم التالي تشرف الطيار محمد صدقي بمقابلة جلالته في قصر القبة

٭ ٭ ٭

وكان رئيس اللجنة المحلية للألعاب الأولمبية إجنبياً فرأى الملك فؤاد أن بين المصريين المشتغلين بالرياضة كثيرين يستطيعون أن يحلوا محله فكتبت الجهات المختصة بذلك إلى اللجنة الدولية العامة للألعاب الأولمبية التي أقيمت في سنة ١٩٣٢ فعين للجنة المحلية رئيس مصري (سعادة محمد طاهر باشا) فاشتركت مصر في الألعاب الأولمبية التي أقيمت في سنة ١٩٣٦

✡ ✡ ✡

من هذه الأمثلة اليسيرة نستطيع أن ندرك حقيقة عاطفة الملك فؤاد في هذا الموضوع وإني أترك لفصل تال الكلام عما بذله جلالته في أوربا لرفع شأن مصر وعن الاعتزاز الذي كان يظهره عند ما كان يتحدث عنها مع عظماء أوربا وأقطابها وكم من مرة سمعته يفيض في هذا الحديث بلهجة لم يكن يعرفها عنه سوى المحيطين به لنفوره من الإعلان عن أعماله ومآثره

ولكن إرجاء الكلام عن ذلك إلى فصل تال لا يمنعنا من أن ننوه هنا بالشأن العظيم الذي كان جلالته يعلقه على التمثيل السياسي في الخارج مع الرغبة في التوسع فيه بقدر المستطاع فقد كان يرى في تعميم المفوضيات والقنصليات المصرية في البلدان الأجنبية خير دعاية لمصر ولنهضتها الحديثة وكان جلالته في حرصه على أن تكون تلك المفوضيات والقنصليات مظهراً جميلاً لهذه النهضة لا يعرف هوادة في محاسبة رجالها على تصرفاتهم

✡ ✡ ✡

وفي خلال زيارة الملك فؤاد لسويسرا رسمياً في سنة ١٩٢٩ وقفتُ على معلومات طريفة تدل على أن اعتزاز جلالته بقوميته كان سجية بارزة فيه منذ حداثته

فإنني لما علمت أن جلالته سينزل في أثناء إقامته في جنيف في الفندق الذي

يشغل الدار التي كانت في وقت ما معهد « توديكوم » سعيت لأعرف هل بين رجال المدينة الأحياء من عرف جلالته لما كان تلميذاً في ذلك المعهد الكبير فقيل لي إن خير من أستطيع زيارته لهذا الغرض هو البروفسور جورج توديكوم نجل البروفسور شارل توديكوم مؤسس المعهد وكان زميلا للملك في عهد التلمذة وقيل لي إنه يعي ذكريات كثيرة عن ذلك العهد إما مما يعرفه شخصياً أو مما تركه له والده في أوراقه وملفاته

ذهبت إليه فألفيته شيخاً وقوراً يناهز السبعين وما كدت أفضي إليه بالغرض من زيارتي حتى قال لي : « كان عمري ثماني عشرة سنة لما جيء بأحمد بك فؤاد — كما كنا نسميه يومئذ — إلى معهد والدي وكان جلالته يومئذ في الحادية عشرة من عمره ويؤخذ من السجلات التي وجدتها في مكتب والدي أن ذلك اليوم كان يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٧٨ وقد مكث جلالته في معهدنا لغاية يوم أول أغسطس سنة ١٨٧٩ »

فقلت للبروفسور جورج توديكوم : « وهل تعلم يا أستاذ لماذا وقع اختيار اسماعيل باشا على معهدكم فأرسل إليه جلالة الملك ؟ » . فقال : « لا أعلم ذلك تماماً ولكنني أعتقد أن الدكتور سالم باشا طبيب اسماعيل باشا الخاص هو الذي نصح له بأن يرسل جلالته إلى معهدنا » . فقلت : « وهل كان للدكتور سالم باشا صلة بمعهدكم ؟ » فقال : « أجل فان نجله محمود بك سالم كان يتلقى العلم في معهدنا وأقام عندنا تسع سنوات كاملة ولذلك قلت لكم إنني أعتقد أن مجيء جلالة الملك فؤاد إلى معهدنا كان بتوصية من الدكتور سالم باشا وكان نجله محمود بك أكبر من الأمير فؤاد أو أحمد بك فؤاد كما كنا نسميه ببضع سنوات فكان يعامله معاملة الأخ الأكبر لأخيه الأصغر ولا يدعه وحده لحظة واحدة غير أنه لما كان جلالته يصاب بانحراف في صحته كانت والدتي هي التي تعتني به بنفسها وتسهر عليه

بشخصها لأنها كانت تأبى أن تتنازل عن هذه المهمة لمرضات المعهد ومعلماته مخافة أن لا يلقى منهن العناية الواجبة الخليقة بمقامه »

فقلت : « وهل كان جلالة الملك يقطن يومئذ في الحجرة التي نزل فيها اليوم ؟ » فقال : « لما دخل الملك معهدنا خصصنا له غرفتين إحداهما للنوم والأخرى للاستقبال (صالون) وهي الحجرة التي نزل فيها جلالته الآن . أما حجرة النوم الأصلية فحولت فيما بعد إلى حمام وهو الحمام الذي يقوم بجوار تلك الحجرة في الوقت الحاضر وخصصت يومئذ حجرة النوم الملاصقة لها للأستاذ المصري الذي كان يدرس اللغة العربية لجلالته وقد غاب اسمه عن ذاكرتي تماماً »

وهنا نهض البروفسور جورج توديكوم واقفاً وقال : «واليوم بعد انقضاء خمسين سنة على ذلك التاريخ ما فتئت أذكر كيف كان جلالة الملك فؤاد يوم أن دخل معهدنا .. ها إنني أراه بثوبه الأزرق الجميل وعينيه العسليتين البراقتين وطربوشه الأحمر الرشيق وكان يلبسه بطريقة جميلة للغاية . . . » فقاطعته وسألته قائلا : « وهل كان جلالته يلبس الطربوش في أثناء إقامته في معهدكم ؟ » فقال : «دائماً إلا في ساعات اللعب » فقلت : « وهل كان جلالته يميل إلى الألعاب الرياضية ؟ » فقال : « لقد كان شغوفاً بها شغفاً عظيماً ووجد جلالته في بادىء الأمر شيئاً من الصعوبة في الاختلاط بزملائه ولكنه ما لبث أن اكتسب مودتهم بلطفه ورقته ونشاطه فأحبوه وأكرموه حتى أنه لما حل يوم رحيله عن معهدنا بكى بكاء مراً لفراقهم فبكوا معه وكان منظراً مؤثراً حقاً »

وبعد ما عاد البروفسور جورج توديكوم إلى الجلوس على كرسيه التفت إليّ وقال : « إن مصر لسعيدة بملكها وإنني كلما سمعت شيئاً عن المشروعات الجليلة التي يفكر فيها جلالته لخيرها ورفاهيتها أذكر حبه لها وغيرته على اسمها منذ نعومة أظفاره وبهذه المناسبة اسمعوا ما سأقصه عليكم عن جلالته في هذا الصدد

« في يوم من الأيام دعا والدي نخبة من طلبة معهدنا إلى عمل رحلة إلى « شاموني » وكان جلالة الملك فؤاد ومحمود بك سالم بين التلاميذ الذين رغبوا في الاشتراك في تلك الرحلة فلما بلغنا شاموني وتسلقنا جبالها شعرنا بتعب شديد ما عدا محمود بك سالم فإنه الوحيد الذي وصل إلى قمة تلك الجبال نشيطاً مستريحاً فلما عدنا في المساء إلى المعهد وجلسنا إلى مائدة الأكل لنلتهم عشاءنا قال والدي : « إن التلميذ الوحيد الذي يستحق الثناء على ما أبداه اليوم من النشاط والإقدام هو محمود سالم المصري فاستحق هذه الجائزة » وناوله جائزة كان قد أعدها لهذه الغاية

قال البروفسور جورج توديكوم : « و بعد انتهاء العشاء أبصرنا الأمير فؤاداً يسرع إلى حجرته ثم يعود إلينا بعد لحظة وهو يحمل القرآن (مصحفه) ولما اقترب من محمود بك سالم قال له : « إنك يا محمود قد رفعت اليوم اسم بلادنا مصر فاقبل مني هذا التذكار » وأهدى إليه مصحفه ولا إخالني مخطئاً إذا قلت لكم إن هذا المصحف الشريف ما زال محفوظاً إلى اليوم . . . هذا هو مليككم كما عرفته تلميذاً فلتهنأ مصر بهذا المصري الكبير »

✡ ✡ ✡

وما كاد جلالة الملك فاروق يعتلي العرش حتى أدرك المصريون أن الملك الراحل خلف لهم خير رمز للقومية المصرية في شخص مليكهم الجديد

فقد حرص الملك فؤاد على تنشئة ولي عهده في جو مصري صميم تقديساً منه للقومية المصرية وتعزيزاً للعلاقات بين العرش والشعب فرعى الله مقصده النبيل وكتب له النجاح فجاء الفاروق عنواناً للقومية المصرية

ولم يكن فى استطاعة الملك فؤاد أن يسدي إلى القومية المصرية خدمة أجل من هذه ولا أعظم منها شأناً